بين الفصحى والعاميّة: أغاليط الخطاب التلهيجي(*)

د. محمد وحيدي(**)

مقدّمة

منذ أكثر من قرن، دخل العالم العربيّ في صراع وجود حضاريّ، فيما سُمّي صدمة الحداثة. وقد كانت المسألة اللّغوية عنوانًا لهذا الصراع، وكانت أحد تجلياته في معترك مقارعة المحتلين، وميادين المغالبة السياسية والنقاش الفكريّ. وقد ظهر هذا الوعي بأهمية اللغة في تحرّر الأمة ونهوضها وسعيها لدخول نادي الحضارة والتقدم مبكرًا عند مفكري النهضة والإصلاح. لكن ذلك لم يمنع ظهور دعاوى تُعادي هذا التوجه العام وتشوّش عليه. فتبلورت فكرة تقول إن "جمود" اللغة العربية ينتصب عائقًا أمام التقدّم الذي لن يتأتّى- زعمًا - إلا إذا تخلّينا عن هذه اللغة، ولهجنا بألسن الحضارة والعلم. وفي سياق ذلك، طُرِحت العامية باعتبارها هذا البديل المحتمَل للفصحى. وتتأسّس هذه الأطروحة على ضرورة إحلال العامية (الدارجة) في محل العربية الفصحى لتقوم بكلّ أدوارها في الحياة العامة كما في الإدارة والتعليم، وتكون لغة الكتابة والتواصل اليومي.

(*) قدمت بعض محتويات هذه المقالة ضمن أنشطة الندوة التكريمية التي نظمت احتفاء بالدكتور عبد القادر الفاسي الفهري في كلية اللغة العربية، ماي 2011.

(**) أستاذ باحث في اللسانيات - جامعة المولى إسماعيل – مكناس – المغرب.

وبالرغم من التطوّر الهائل الذي عرفته اللغة العربية، والجهود الجبّارة التي بذلتها أجيال من المفكرين والأدباء والعلماء لتطوير هذه اللغة والبحث فيها وفي أدوات تأهيلها، فإن هذه الأطروحة القائمة على استئصال اللغة العربية (الفصحى) تُبعَث في صور شتى تشويشا وضِرارا. تحاول هذه الورقة إضاءة هذه المسألة وسياقاتها وتضمناتها. وهي تتوخّى أساسًا كشف مفارقات الخطاب التلهيجي وأغاليطه. وسنبيّن أن هذا الخطاب، الذي يدعي التطوير والحداثة، خطاب جامد لم يطوّر أدواته؛ بل ظل يردّد الأفكار والحجج ذاتها، من قبيل أن العربية لغة جامدة، وأن موتها حتمي، وأن المستقبل للعاميات (الدوارج). وهذا دليل واضح على تهافته. سنتناول سياق بروز فكرة العامية، وغايات إعادة إحيائها الظاهرة والمخفية. ثم ننتقل إلى إبراز زيف بعض الأفكار التي تأسست عليها وتَداعي الاستدلالات التي سيقَت لتعزيزها؛ حيث سنركّز على طبيعة العلاقة بين الفصحى والعامية وما بينهما من اتصال. ثم نعرض مسألة الموت الحتمي المزعوم للعربية قياسًا على اللاتينية التي أخلت مكانها للهجات. كما نعرض فيها أيضا قضايا اللغة والانفتاح والتعدد.

1. أطروحة العامية: السياق والتضمنات

1.1. فكرة استعمارية في ثوب جديد

يتداول أدعياء أطروحة العاميّة جملة من الأفكار، منها أن العربية الفصحى لم تَعُد صالحة لمواكبة التطور، وأنها ليست لغة علم، وأنها لغة جامدة ومشحونة بالمقدس. وهي إضافة إلى ذلك تعوق النموّ الفكريّ والوجدانيّ للطفل العربيّ، لأنها ليست اللّغة الأم (lingua materna) بالنسبة إليه. من أجل كل تلك "النقائص"، لا بدّ من التخلّص منها وإحلال العاميّة محلّها من أجل تجاوز هذا الازدواج الذي أصبح عائقًا. ويستلزم كل ذلك كتابة العامية –ولِمَ لا بحروف لاتينية؟!– وتمكينها في الإدارة والتعليم وجعلها لغة الكتابة والعلوم،

وتزويدها بالمعاجم والكتب المدرسية والترجمة إليها، و"نقل" القرآن الكريم إليها حتى يصبح متاحًا للجميع.

إن هذه المضامين مُتدَاوَلة في الخطاب التلهيجي جزئيا أو كليا. ويقتضي نقضها فهم السّياق الذي تبلورت فيه أول نشأتها. من المعلوم أن أطروحة العامية ليست جديدة، بل ظهرت في أوساط بعض الكُتَّاب العرب منذ نهاية القرن التاسع عشر، أمثال أمين شميل، ولويس عوض وسلامة موسى وغيرهم. وقد كانت في الأصل صدى لأفكار روّج لها بعض المستشرقين، أمثال فيلهِلم سبيتا (Wilhelm Spitta) في مصر، وجورج كولان (Colin) في المغرب الأقصى. ولا تخفى ارتباطاتُ هؤلاء المستشرقين الواضحة بالدوائر الاستعمارية، وأدوارُهم في خدمة المشروع الكولونيالي في بُعْدَيه الثقافيّ واللغويّ. ونظرا للخلفية الاستعمارية لتلك الأفكار حول اللغة العربية الفصحى وصِلتها بالعامية، وخاصة الدعوة إلى العامية، فقد لقيت مقاومة شديدة من قبل المثقفين العرب الذين دافعوا عن العربية الفصحى وسعوا إلى تطويرها وتجديدها لنقض هذه الأطروحة من أساسها. في هذا الإطار، نُذكِّر بالسياسة اللّغوية في المغرب الأقصى التي قامت على الفصل بين المكوّنات اللّغوية في المشهد اللّغويّ المغربيّ على أساس أنه يقوم على عنصريْن أساسيْن، هما: المازيغية والعامية المغربية. أما العربية الفصيحة فقد عُدَّت مكونًا غريبًا ولا صلة لها بلغات المغرب. وقد كان من أدوات تنفيذ هذه السياسة إنشاء معاهد تكرّس هذا الميز اللغوي، مثل **معهد الأبحاث العليا المغربية** (Institut des Hautes Etudes Marocaines) الذي أسّسته سلطات الحماية الفرنسية في الرباط واستمر عمله بين 1915 و1959. ويمكن اعتبار المعهد الوطني للغات والحضارات الشرقية (inalco) في باريس اليوم استمرارا لهذا التوجه في خدمة أجندة استعمارية قديمة. وقد كان دور الحركة الوطنية حاسمًا في التصدي لهذه الأفكار التي رَوّج لها المستعمِر حول العربية والعامية. يبدو جليا إذن أن هذه الدعوات هي استعادة لمطامح استعمارية قديمة فشل الاستعمار في توطينها بنفسه، فاصطنع لها أتباعا يروجونها بضاعة مزجاة.

2.2. مفارقات وأغاليط

يقوم الخطاب السائد حول العامية وعلاقتها بالفصحى على جملة من الأغاليط والمفارقات التي لا نجد لها تفسيرا. وقد أوضحنا في الفقرة الفرعية السابقة أن هذه التصورات تشكّلت في سياق "كولونيالي" كان هدفه المعلن والخفي التمكينَ لثقافة المستعمِر، وضمنها لغته. وقد كانت تلك سبيلَه إلى حماية مصالحه، وإضعاف النزوع إلى المقاومة الذي كان ردّ فعل طبيعيًا من المستعمَر.

لا يُقدّم لنا هذا الخطاب تفسيرًا لملاحظتيْن رئيستيْن: الأولى هي أن المناداة بالعامية جاءت في سياق كانت فيه اللغة العربية قد بدأت تخرج من قرون من الجمود والضعف أحالها قوالب جامدة من التعبير. وقد أثمرت جهود أجيال من المفكرين والأدباء والفلاسفة والعلماء المخلصين، فنزعت اللغة العربية عنها أثواب البِلى، وجدّدت نفسها معنى ومبنى، وعاد لها بعض ألقها وبدأت تستعيد حيويتها وإشعاعها. والثانية هي أن هذه الفِرية سيقت في وقت كان الإنسان العربي مغلوبًا على أمره، فكان الاستمساك بلغته عنوانا للمقاومة. والغريب أن يستمر تداول هذه المقولات – التي رددها الاستعمار – في زمن تحرر الإرادة العربية.

من الأفكار التي لا يملّ دُعاة هذه الأطروحة من تكرارها أن اللغة العربية لغة ميتة لا تتطور. بداية لا بدّ أن نقرر أن التغير ناموس يحكم اللغة، فلا يصحّ أن تشذّ العربية عنه. وإذا كان في مقدور المتكلّم بالعربية اليوم أن يتواصل مع تراثه الثقافي بيسْرٍ غير قليل، رغم الفارق الزمني المعتبر، فإن ذلك لا يعني أن هذه اللغة ظلّت جامدة. ولعلّ مقارنة بسيطة بين ما كان يُنشر في بداية القرن الماضي في الصحف وما كان يكتبه الأدباء من جهة، وبين ما يُكتب اليوم من جهة أخرى، تعطينا فكرة عن التجديد الذي طال هذه اللغة. ولولا هذا التجدّد لما ارتفع أدباء العربية إلى قمم المجد الفكريّ والأدبيّ. ثم كيف يُزعَم أن العربية لم تتطور ولم تتجدّد وهي اليوم إحدى لغات التواصل الإعلامي الرائدة؟ وهل

يصحّ أن يتكلّم الشرق والغرب -ويصطنع لها الفضائيات الناطقة بها كلية- لغة جامدة؟ إن العربية اليوم في عصر الشابكة (الإنترنت) والفضائيات ليست لغة جامدة معزولة، بل هي لغة حية تتفاعل مع محيطها تأثّرًا وتأثيرًا. وهذه ليست انطباعات أو أمانيّ، بل هي أرقام. فأعداد مستعملي العربية على الشابكة (الإنترنت) في تزايد مطّرد، والعربية الأنيقة علامة تجارية مطلوبة. وهي إلى ذلك لغة ينفتح بها علينا الشرق والغرب. فهل سمعت عن لغة ميتة هذه أوصافها؟

ومن تلك الأفكار أيضا أن اللّغة العربية الفصيحة لا تصلح للتواصل اليومي. وهذه فكرة تدلّ على ضحالة في الفكْر وتسطيح في الفَهْم. فهُم يقصرون التواصل على التعبير عن الحاجات اليومية. لذلك يجادلون بأن استعمال الفصحى في الشارع مَدعاة للتندّر. ومعلوم أن من سمات الازدواج (diglossia) ارتباط الفصحى والعامية بمجالات وظيفية متمايزة؛ حيث ينبغي استخدام الشكل المناسب في الوظيفة المناسبة. فمن الطبيعي أن يثير استخدام الفصحى في غير مجالها الوظيفي سخرية، وهذا ينطبق على العامية بالقدر نفسه. علاوة على ذلك، ينطوي هذا القول على مغالطة كبرى، هي أن اللّغة التي يستعملها الناس في تواصلهم اليومي لا تمتُّ إلى العربية بأية صلة. وهذا غلط كبير. وسنعود إلى ذلك في الفقرة القادمة. إن كثيرًا مما يستعمله الناس بعفوية وتلقائية عربي فصيح. والمغالطة الثانية هي أنهم يسجنون التواصل في هذه المجالات المتصلة بحاجات الناس اليومية. أليست الأرقام العالية والمتقدمة التي تحققها العربية (الفصيحة) في الإذاعة والتلفزة والصحف اليومية والمواقع الإلكترونية الجادة دليلا قويا على أنها لغة تواصل بامتياز؟ ولا أحد يفسّر لنا لماذا لم تستطع العامية (الدارجة) أن تحقق نتائج معتبرة في هذه المجالات التواصلية التقليدية وغير التقليدية؟ لماذا لا نجد جريدة واحدة واسعة الانتشار بالدارجة[1]؟

(1) كان استخدام العامية واسعا في مصر مثلا منذ نهاية القرن التاسع عشر. ولم يكن استخدامها مقصورا على بعض الداعين إليها. بل لجأ إليها حتى بعض المفكرين الذين كانوا ينتصـرون = =

وارتباطًا بالفكرة السابقة، يدّعي أصحاب أطروحة العامية أن اللغة العربية الفصيحة لا تُعبّر عن وجدان المتكلّم العربي. ونحن لا نعثر عندهم على مقصودهم بالوجدان. وهم لا يخبروننا ماذا نفعل بكلّ هذا التراث الشعري الغني في التعبير عن أدق الأحاسيس وأنبلها، بل وأكثرها التصاقًا بالنفس البشرية.

نختم هذه الملاحظات بالحديث عن اللّغة والمقدس. إن اللّغة العربية – في زعمهم – عاجزة عن التطور لأنها مشحونة بالمقدس، لذلك تجد لسان المتكلم بها مغلولا لكثرة القيود. ولا بُدّ من بعض التوضيحات ههنا. أولا، إن اللّغة هي مجال القيود بامتياز. فاللّغة بالتعريف هي نسق من القواعد يستبطنها المتكلّم ويلتزم بها. والعربية ليست بدعًا من اللّغات. ثانيًا، لا يعني ذلك فرض قيود قاهرة على متكلّم العربية على طريقة قُل ولا تقُل. ثالثًا، إذا كان ربط اللّغة بالمقدس يُحيل على العلاقة بين اللغة العربية والقرآن الكريم، فإن هذا الأمر مردود من وجوه عدّة، نذكر منها اثنين: أولها، أن العربية لغة المسلمين وغيرهم كما يشهد بذلك التاريخ. بل إن ارتباط المسيحيين في المشرق العربي (في سوريا ولبنان) باللغة العربية كان عظيمًا. ولسنا في حاجة إلى التذكير بجهود المسيحيين في إحياء العربية وتطويرها وتيسيرها. بل إن المسيحيين كانوا يتعاملون مع القرآن لأنه كتاب هذه اللّغة. فالمُعتقَد لم يكن عائقًا أمام التعامل مع اللّغة العربية[2]. وثانيها أن اللغة العربية اتسعت في تعبيرها للمقدس الديني والمدنّس الدنيوي. فكيف يقال عن لغة اتسعت للشعر والقرآن، لأهل الفقه والحديث والباطنية والدهريين والملحدين والمتكلمين والفلاسفة إنها لغة مشحونة بالمقدس؟!

= = للعربية الفصيحة أمثال عبد الله النديم. ومع ذلك لم تستطع العامية اختراق المجالات التقليدية للعربية الفصيحة، وظلت محدودة في استعمالها كمًّا ونوعا. بل إن العربية تتفوق حتى على اللغة الأجنبية في هذا المجال.

(2) يروي المفكر الفلسطيني منير شفيق في أحد حواراته أن أباه –وقد كان مسيحيا– كان يحفزه على حفظ القرآن الكريم من أجل صقل ملكته اللغوية.

2. الفصحى والعامّية وما بينهما من اتصال

1.2. تحديدات أولية

تحفل الأدبيات، في حقلي اللسانيات الاجتماعية أو اللهْجِيات (Dialectology)، بكثير من المفاهيم المتصلة بالتنوع اللغويّ. ومن أمثلة ذلك مفردات لغة، ولهجة، وعامية أو دارجة، ولغة معيار ولغة غير معيار، إلخ. ويطرح استخدام هذه المصطلحات إشكالات كثيرة، لأنها ليست محايدة، بل هي مشحونة بالإيحاءات والدلالات التي يسعى الكثيرون إلى تجنّبها. ولا ندّعي في هذا المقام بسط هذه الفروق، ولكننا نحاول فهم السياقات التي تَرد فيها حتى نتبين دلالات استخدامها في سياق الحديث عن وضع اللّغة العربية.

إن ثنائية فصحى-عامية ليست واضحة، بل يلفها كثير من الغموض. وسبب ذلك أن مصطلح عامية (vernacular) نفسه لا يعني شيئًا واحدًا في جميع السياقات والاستخدامات. علاوة على ذلك، تُسهم بعض الإيحاءات القدحية في زيادة الغموض المتصل به. وهذه الدلالة القدحية مرتبطة أساسًا بتشكّل المصطلح ذاته[3] [4].

(3) يثير مصطلحا *عامية* العربي أو"vernacular" اللاتيني إشكالات كثيرة، فاستخدامهما مشحون بالدلالات القدحية التي تنشأ عن النظرة التنقيصية لهما. وهذا مرتبط بسياق نشأتهما. فكلمة عامية ارتبطت نشأتها بما يسمى ظاهرة اللحن التي ينظر إليها عادة على أنها نوع من فساد اللغة. وقد ظهر نوع من الكتابات ترصد هذه الظاهرة تسمى كتب لحن العامة. لذلك ينحو البعض إلى استبدال كلمة دارجة بها لأنها تخلو من هذه الدلالة الإيحائية. وفي السياق اللاتيني، تثير كلمة "vernacular" نقاشا أوسع لأنها كانت جزءا من الجدل الذي كان دائرا حول ما كان يسمى عند رواد الحركة الإنسية (Humanism) "*المسألة اللغوية*" (questione della lingua). وتشير أثالة الكلمة إلى ارتباطها بالكلمة اللاتينية "vernaculus" التي تعني جِبلِّي أو فطري. وقد وردت كلمة "vernaculus" في محاورة "بروطوس" الشهيرة لشيشرون. ثم دخلت الجدال الفكري بين مفكري الحركة الإنسية في إيطاليا في القرن الخامس عشر الذين استبدلوها بالكلمة الأقدم "vulgaris". انظر رامينغر، 2010 للتفاصيل.

(4) تشير سياقات استخدام كلمة "vernacular" في الدراسات اللسانية المعاصرة إلى التباين الكبير في التعامل مع هذه الكلمة. فالدراسات ذات التوجه الأنثروبولوجي تتجنب الحديث عنها ==

ويحيل التمييز بين الفصحى والعامية على ثنائية أخرى هي ثنائية لغة – لهجة (dialect/language). ومعلوم أن هذه الثنائية تكتسب دلالتها داخل حقل اللسانيات الاجتماعية؛ إذ إن اللساني لا يهتم بهذه التنوعات، لأن ما يعنيه أساسًا هو تخصيص المعرفة الضمنية للمتكلِّم بلغته. فالسلوكات اللغوية هي تجسيد لحالة ذهنية. وهذا موضوع كان موضع جدل كبير بين تشومسكي ولايبوف (Labov) مثلا. إن التمييز بين اللغة واللهجة محكوم أساسًا بالعوامل الثقافية والسياسية. وفي هذا السياق يمكن أن نفهم عبارة: "اللّغة لهجة لها جيش وأسطول"[5].

ولعل ما يزيد المسألة غموضًا هو المصطلحات الكثيرة التي تستخدمها الأدبيات الاستشراقية التي اشتغلت على اللّغة العربية. ولذلك نجد حديثا عن عربية قديمة (Altarabisch/old Arabic) وعربية حديثة (Neuarabisch/neo-arabic). إضافة إلى ذلك، تَرِد مصطلحات أخرى أمثال عربية كلاسيكية وعربية معيار. وفي الدراسات التركيبية المعاصرة المشتغلة باللغة العربية، نجد أن أكثر الاصطلاحات استخدامًا في وصف الوضع اللغوي العربي الازدواجي هو التمييز بين عربية معيار (حديثة) "Modern Standard Arabic" وعربية منطوقة (Spoken Arabic)، وأحيانا يُضاف وصف يشير إلى المنطقة التي تتكلم فيها تلك اللغة، فيكون الحديث عن عربية مغربية أو مصرية أو فلسطينية ونحو ذلك.

2.2. المتّصل اللغوي العربي

تمثِّل اللغة العربية أحد الأمثلة الواضحة لما يُسمّى الازدواج اللغويّ (Diglossia). ويقصد بالازدواج في التعريف المعيار الذي قدمه فيرغيسون

= = نظرا لحمولتها الجارحة. وفي مجالات بحثية أخرى تستخدم بمعان مختلفة انطلاقا من السياق التقابلي الذي ترد فيه. فهي قد تستعمل في مقابل اللغة الشمولية (lingua franca) باعتبارها وسيلة للتواصل بين عاميات لا يحدث التفاهم بينها. وفي اللسانيات الاجتماعية قد ترد في سياق التمييز بين لهجة معيار ولهجة غير معيار وأحيانا قد تدل على تنوع أدنى مقابل تنوع أعلى كما نجد في تصور فيرغيسون للازدواج.

(5) تنسب هذه المقولة لعالم اللسانيات ماكس واينريش(Max Weinreich).

(Fergusson 1959) أن المتكلمين يستخدمون داخل مجموعة لغوية تنوعين أو أكثر للغة واحدة تحت شروط مختلفة. وهكذا يستعملون شكلا (اللهجة) داخل البيت أو مع الأصدقاء، بينما يستخدمون شكلا آخر (اللغة المعيار) في المناسبات العامة والرسمية[6].

وإذا كانت ظاهرة الازدواج ملازمة للّغة العربية، فإن تفسيرها ظلّ إشكالا واجهته الدراسات الاستشراقية الغربية التي اهتمت بتاريخ اللغة العربية. من هذه القضايا تحديد ماهية اللغة المتكلَّمة قبل انتشار الإسلام، أو ما يسميه أوينز (Owens, 2006) عربية ما قبل الشتات (Pre-diasporic Arabic). ومن تلك الإشكالات أيضا تحديد طبيعة العلاقة التي جمعت بين اللغة العربية المعيار أو المسمّاة في الأدبيات الغربية العربية الكلاسيكية (Classical Arabic) من جهة، وبين اللهجات القديمة أو الحديثة من جهة أخرى. والملاحَظ أن الدراسات الغربية محكومة بتصوّر منهجيّ يفترض أن العلاقة بين ما يسمّى العربية الكلاسيكية واللهجات المعاصرة هي علاقة تعارضية. في الوقت الذي يمكن أن تكون فيه العلاقة بين العربية المعيار والعربية المنطوقة قائمة على التعاون والتآزر والتكامل[7].

وقد تبلور هذا التصوّر الذي ينفي وجود صلات بين اللّهجات العربية المعاصرة وبين الفصحى أساسًا داخل الأوساط الأكاديمية المرتبطة بالاستعمار. فانتشرت ادعاءات تقول إن اللغة التي يتكلّمها سكان شمال إفريقيا ليست عربية. وقد قال كولان إن اللهجة المغربية أبعد اللهجات العربية عن اللغة العربية الفصحى. وقد تنبّه كثير من الكُتّاب وتصدوا لمثل هذه الأفكار[8].

---

(6) يتجنب فيرغيسون في مقالته الشهيرة "Diglossia" استخدام مصطلحات لغة (معيار) أو لهجة لِما لها من دلالات تتجاوز المعنى الوصفي. لذلك يستبدل بهما كلمتين أكثر وصفية. فيدل على اللهجة بالتنوع/الشكل الأدنى (Low) واللغة المعيار بالتنوع/الشكل الأعلى (High).

(7) انظر أوينز، 2006، حول هذه القضايا.

(8) كتب العلامة عبد الله كنون في كتابه "التعاشيب" ردا جميلا على ادعاءات كولان، وبين أن الكثير من عامية المغرب أقرب إلى اللسان الفصيح من أي جهة أخرى في العالم العربي. وتفسير ذلك أن المغرب لم يتأثر برياح التتريك التي خضع لها المشرق.

وفي خصوص الوضعية السوسيولسانية للّغة العربية المعاصرة، يمكن القول إنها تفرز سمات أساسية تدلّ على أن افتراض وجود علاقة تعارضية بين الفصحى والعامية تفنّده المعطيات اللسانية القديمة والمعاصرة، وتدحضه الوقائع التاريخية. ويمكن أن نوجز هذه السّمات في النقط الآتية:

1. تمثّل اللغة العربية اليوم متصلا لغويا واحدا تتمفصل داخله ثلاثة مكوّنات لغوية: لغة معيار (فصيحة)، ولغة منطوقة شفوية (أو دارجة). وبينهما لغة وسيطة هي اللغة المستعملة بين المثقفين أو في الإعلام.
2. يوجد تداخل بين هذه المستويات. فالعربية المعاصرة المنطوقة هي مزيج من اللّهجة (أو عربية البيت) والعربية التي يتعلّمها المتعلّم في المدرسة.
3. على مستوى المعجم، هناك تداخل كبير بين الشكل الفصيح والشكل المنطوق. وقد أثبتت كثير من الأعمال كثرة الفصيح في معجم اللغة المنطوقة.
4. تُظهر الدراسات المقارنة (أعمال الفاسي الفهري وبنمامون وغيرهما) التي اهتمت بدراسة النسق التركيبيّ للّغة العربية، أن العربية المنطوقة والعربية المعيار تمثلان نسقًا واحدًا في خصائصهما العامة من حيث نظام الرتبة والنسق الصّرفي. وترتد الفروق إلى طرق تثبيت قيم بعض السّمات والوسائط.

3. هل الصراع بين الفصحى والعاميات حتمي؟

توقّع أصحاب أطروحة العامية من المستشرقين أن تدخل العربية الفصحى في صراع مع العاميات، وأن ينتهي هذا الصراع بموت العربية واندثارها وانتصار العاميات وحلولها محلها. وهم في ذلك يقيسون ما سيقع للعربية على ما وقع للاتينية عندما نازعتها العاميات وضعها ودخلت معها في

علاقة منافسة وصراع، ثم كانت الغلبة في النهاية للعاميات. وقد التقط دعاة العامية عندنا هذا الادعاء وبنوا عليه أحكامهم حول مصير العربية الفصحى والعاميات. في هذه الفقرة سنسلّط بعض الضوء على هذه المسألة، وسنبين أن قياس وضع العربية على اللاتينية تعارضه الوقائع.

في البداية لا بدّ من تقديم بعض الملاحظات الضرورية نقدمها بين يدي الاستدلال.

أولا، إن طبيعة العلاقة بين اللاتينية والعاميات ليست بالبساطة التي يتصورها البعض. بل هي علاقة مركبة، ولم تكن علاقة صراع وتنافس فقط، بل كانت أيضا علاقة إغناء وتخصيب متبادلين. فرغم أن العاميات بدأت تكتسب وضعها في أوروبا منذ القرن العاشر الميلادي، فإن جدلية التفاعل والصراع ظلت قائمة قرونا طويلة، وحافظت اللاتينية على حضورها ووضعها الاعتباري حتى نهاية القرن التاسع عشر. وهناك اليوم في الأوساط الأكاديمية عودة إلى هذه المسألة لاستكشاف طبيعة العلاقة المعقدة بين اللاتينية والعاميات في الفكر الإنسي الأوروبي منذ القرن الخامس عشر[9].

ثانيا، إن صعود العاميات في أوروبا لم يكن لأسباب تتعلق باللاتينية أو العاميات وضعف الأولى أو قوة الثانية؛ فاللاتينية كانت لغة العلم والآداب الرفيعة والخطابة السياسية، بينما كانت العاميات تحتاج إلى عمل كبير، تأهيلا وتطويرا. بل كان لأسباب سياسية تتصل أساسًا بتشكّل ما يُسمّى القومية اللَّسَنية *(linguistic nationalism)* في أوروبا. فقد بدأت فكرةٌ في التخلق تقول إن تطوير اللغة الوطنية حاجة سياسية ملحة لبناء الدولة الوطنية.

ثالثا، ارتبطت الحاجة إلى اللّهجات في أوروبا بتطور الحركة الإنسية الأولى *(Humanism)* في أوروبا منذ القرنين الخامس عشر والسادس عشر. وقد لعب

(9) انظر أَرلند ورامينغر 2010، والأبحاث هناك.

الدورَ الحاسم في هذا المجال عاملان أساسان. أحدهما ظهور فكرة الدولة–الأمة التي تقوم على شعار "*لغة واحدة لأمة واحدة*". فكان للّغة دور كبير في نشوء فكرة الأمة وقيام كثير من الدول في أوروبا (إيطاليا، فرنسا، وألمانيا). والآخر تطور الحركة البروتستانتية التي تبنّت الإصلاح الدينيّ وقادت ثورة ضدّ الكنيسة. وكان من بين ما دعت إليه وقامت به ترجمة الكتاب المقدّس إلى اللهجات الأوروبية (الفرنسية والألمانية والإنجليزية وغيرها) بعد أن كان التعبد الدينيّ باللاتينية حصرًا. ولا نغفل هنا عن التذكير بالدور الحيوي الذي لعبته الطباعة في هذا الباب.

رابعا، لم تكتسب اللهجات الأوروبية وضعها كوريثة لعرش اللاتينية إلا بعد مسيرة طويلة من التأهيل والتطوير؛ وظهرت فيها النصوص التأسيسية للآداب الأوروبية. فكتب دانتي (Dante) الكوميديا الإلهية، وكتب بها هيردر (Herder) وشكسبير بعد ذلك. ولعل ما قوَّى ظهرها كتابة نصوص علمية بها، إذ نشر إسحق نيوتن كتابه في البصريات (Optiks) بالإنجليزية، بعد أن ظهر كتابه (Principia) باللاتينية.

خامسا، لم تتحول الحركة الإنسية إلى العناية باللهجات العامية إلا بعد فشل جهود بعث اللاتينية وإحيائها. وهذا يفسِّر كون رواد الإنسية الأوروبية (بيوندي، بروني، دانتي، فالا وغيرهم) جعلوا من اللاتينية نموذجهم لتطوير لهجة التوسكاني (*Tuscani*). وقد حدّد الشاعر وحاكم فلورانسا لورينزو دي ميديسي (Lorenzo Di Medici) أربعة شروط لترتفع اللّهجة إلى مرتبة الكمال والشرف: غنى المعجم، وعذوبة اللفظ والانسجام، واستعمال كُتَّاب كبار للّغة لمقاربة قضايا عظيمة، وأخيرا أن تحظى اللغة بالتقدير والانتشار[10].

انطلاقا من الملاحظات السابقة، نحاول أن نتصدّى لمسألة قياس وضع العربية وواقعها على وضع اللاتينية. إن الازدواج بين العربية الفصحى أو المعيار

(10) انظر ألان باتن 2005 للتفاصيل.

ولهجاتها لم يكن قائما على التنافس أو الصراع. وسبب ذلك أن الشروط الموضوعية التي أملت تعاظم دور العاميات في التاريخ الأوروبي، كما بينا آنفا، لم تكن موجودة في تاريخ اللّغة العربية. لقد كانت اللّهجات، أو اللّغات بتعبير القدماء، روافد تُغني العربية المعيار وأساس عملية المعيرة التي تمت بالنسبة للعربية، معجما ونحوا. إن الذي رفع العربية وساهم في عملية المعيرة (standardization) ليس الحاجة السياسية التي يمليها بناء الدولة كما حدث في أوروبا، بل وجود نصوص تأسيسية وحّدت السجلات اللغوية المختلفة، وأعطتنا لغة معيارا هي التي نصطلح عليها باسم اللغة العربية المعيار أو الفصحى. وعلى رأس هذه النصوص: القرآن الكريم والشعر، اللذيْن كانا أساس بناء المدونة اللغوية العربية. إن المعيرة اللغوية لم تكن لأسباب سياسية كما حدث عند الأوروبيين، بل كانت لدواع علمية ارتبطت بحركة التدوين والترجمة ونشأة العلوم الإسلامية، كما يقرر ذلك مؤرخو الفكر الإسلامي. علاوة على ذلك، لم تجد الأمم غير العربية غضاضة في احتضان العربية وخدمتها. وليس غريبا أن أكثر من خَدَم العربية وبَرَع فيها – سيبويه وأبو علي الفارسي وابن جني وغيرهم كثير– لم يكونوا عربًا عِرقًا، ولكنهم كانوا عربًا لسانًا. وفي المغرب، ضرب الأمازيغ مثلا رائعًا في احتضان اللغة العربية واتخذوها – طوعًا – لسانهم، غيرَ مضارِّين ولا مكرَهين.

وفي العصر الحديث، لم نجد حركة قوميّة أو سياسيّة في العالم العربي[11] واحدة قامت على التنكر للعربيّة أو اتخاذ العاميّة أساسًا لغويًا لها. والتفسير واضح، إن الدعوة إلى العاميّة كانت مطلبًا استعماريًا. فليس غريبًا أن أول مطلب داخل الحركة الوطنية التحرريّة في الوطن العربيّ كان الدفاع عن اللّغة الوطنية والتمكين لها والتصدي لدعوات الاجتثاث التي تبناها دعاة التغريب ووِلدانه. فنشأت حركة تعريب واسعة – عرَتها عيوب واعترضتها صعوبات – تدلّ على وعي بأن التجذر الهُوي للأمة لا يكون إلا باللغة الوطنية وداخلها.

(11) طبعا نستثني من هذا القول الحركات القومية غير العربية، الكردية والمازيغية، التي قامت على عناصر مختلفة ضمنها اللغة والثقافة. لكن ذلك لا يتعارض مع القول إنه حتى داخل هذه الحركات، يبقى التوجه العام إجمالا عدم التعارض مع العربية.

4. اللغة والإيديولوجيا

تشير الدراسات في مجال لسانيات علم الإنسان (الأنثربولوجية) و(إثنوغرافيا الكلام) (ethnography of speaking) أن وعي الأفراد بلغاتهم ودورها في تثبيت الهوية الفردية والجماعية وصياغة الوجود الإنسانيّ للمجموعات الإنسانية، يلعب دورًا حاسمًا في استمرار تلك اللّغات وترسيخها. وقد تبلور في إطار هذه الدراسات مفهوم **إيديولوجية اللغة** (Language ideology)، وهو يرتبط بالتصوّرات الثقافية في علاقتها بالبنيات الاجتماعية. تمثل الإيديولوجيّة اللغويّة نوعًا من الربط بين أشكال الكلام وتلك البنيات. وتمكِّن تلك الإيديولوجيات من ربط اللّغة بهويات الأفراد والجماعات، بل إنها تعكس نوعًا من الرؤية الجماليّة والأخلاقيّة. ويورد وولارد وشيفلين (Schieffelin and Woolard 1994) مجموعة من التعريفات للإيديولوجيّة اللغويّة تلتقي عند اعتبارها "مجموعة من المعتقدات حول اللغة تصدر عن مستعمليها كعقلنة أو تبرير لبنية اللغة أو استخدامها"، أو مجموعة من "الأفكار والأهداف التي تعتنقها جماعة ما حول الأدوار التي تؤديها اللّغة في الخبرات الاجتماعيّة للأفراد". وقد يحيل هذا المفهوم على "النسق الثقافي للأفكار المتصل بالعلائق اللّغوية والاجتماعية ذات الحمولات الأخلاقيّة والسياسيّة"[12].

على هذا الأساس لا يمكن فصل الأفكار المتداولة في المجتمع حول اللّغة وأدوارها عن صراع المصالح السياسيّة، والتصوّرات التي يحملها المتكلّمون حول لغتهم. ومما نستغربه أننا لا نملك دراسات تعتني باستقصاء هذه العلاقة بين اللّغة والتصوّرات الاجتماعيّة – الثقافيّة. لكن بعض المؤشرات تصلح لإرشادنا إلى طبيعة هذه التصوّرات. إننا نلاحظ اهتمامًا متزايدًا باللّغة الوطنية، بالرغم من المنافسة الشرسة والتضييق عليها. والواضح أن التزايد المطرد لنسب الاستماع إلى الإذاعات الوطنية، كما بيّنت ذلك قياسات معتمدة، أو ارتفاع نسبة

(12) وولارد وشيفلين 1994، ص 57.

قراءة الصحف المغربية بالعربية أو تصفح المواقع الإلكترونية العربية، تدلّ على توجّه عام يعيد الاعتبار للّغة الوطنيّة الرسميّة رغم كل ما يُشاع. ومما تَقَرُّ به الأعين أن هذا الوعي باللغة الوطنية يتنامى باطراد. من ذلك استخدام ملصقات على زجاج سيارات الأجرة كُتبت بلغة عربية فصيحة من قبيل: "رجاء، أغلق الباب بلطف". إن هذه العبارة ليست فقط تقنية جديدة للتواصل والتفاعل الاجتماعيّ، بل تعكس نوعًا من المعتقدات الثقافية حول اللّغة وعلاقتها بالهوية تنتشر بين شرائح واسعة من المجتمع المغربي. وهي َردّ واضح على المرجفين الذين يرددون أن المغاربة يتكلمون لغة لا علاقة بينها وبين الفصيحة، الغريبة في زعمهم. إن هذه المعتقدات والممارسات اللغويّة ينبغي أن تتحوّل إلى سياسة لغويّة واعية وواضحة تُعيد الاعتبار للغة المغاربة الأولى، وتتناغم مع توجهاتهم وتصوراتهم.

5. اللّغة والهوية: جدل التَّعدد والانفتاح

تُقرِّر الدِّراسات في مجالات اللِّسانيات وعلم الإنسان (الأنثربولوجيا) وعلم الشعوب (الإثنوغرافيا) وجود علاقة وثيقة بين اللغة والهوية (Identity). فاللّغة أقوى مظاهر التعبير عن هوية الأفراد والجماعات، واللّغة لا يمكن أن تحيا خارج جماعة لغوية تتكلمها وتحميها. ومعلوم أن لغات كثيرة حول العالم باتت مهدّدة بالانقراض كلية لأنه لم يَعُد يوجد من يتكلّم بها. فرياح الكوكبة تتهدّد كثيرًا من اللّغات، وتفرض التكتل والتوحُّد في مجالات الوجود الرمزي كما فرضته في مجالات الاقتصاد والسياسة.

وقد عرفت السَّاحة المغربية في الفترة الماضية نقاشًا واسعًا حول المسألة اللغوية وعلاقتها بقضايا أعمق حول الهوية والدسترة اللغويّة أو هوية الإعلام العمومي. وكانت اللّغة في قلب هذا النقاش. وعادت مسألة اللغة لتتبوأ صدارة هذا النقاش. فسجلنا تداول كثير من المفاهيم والمقولات التي يُراد بها التشويش على العربية واستبعادها. ومن جملة ما تردد ضرورة إعادة الاعتبار للّغة الوطنية

و"لغة المغاربة"، ويقصدون طبعا الدارجة المغربية باعتبارها اللغة الأكثر تجسيدًا للهوية المغربية المتميزة. ويقوم هذا الخطاب على أغاليط بيَّنا زيفها في الفقرات السابقة.

إن مثل هذه الادعاءات تقوم على تصور انشطاري (تفتيتي) للهوية، يقوم على فرز ذوات هوياتية "إثنية" غير موجودة في الواقع. فالهوية المغربية – كما صهرتها قرون طويلة من التعايش والتفاعل والتداخل الإثني واللغوي والديني– هوية *مركبة مزيجة*. وقد لعبت عوامل حاسمة كثيرة دورها في تشكيل هذه الهوية، أهمها الدين الإسلاميّ واللّغة العربيّة. لقد ارتضى المغاربة اللغة العربية – طواعية – كما ارتضوا الإسلام. ولم ينشأ بين هذه المكونات أي تعارض إلا عندما اختلق الاستعمار البغيض فرقة إثنية ولغوية بين المغاربة، واصطنع لها الأدوات والخُدَّام. وبعد أن عجز عن تحقيق مراميه، تُوشك أن تُثمر، عقودًا بعد رحيله.

وتنتهز بعض الكائنات الطفيلية الفرصة لتحقيق مآربها، وتتصيّد لها كلّ سانحة. وترفع لها شعارات التعدد والانفتاح والهوية. وهي كلها مقولات تقوم على مصادرة مسبقة هي أن اللغة العربية (الفصحى) لا تعبر عن الهوية، وتقوم على التوحيد القسري القاهر. ولا يُفسّر لنا أصحاب هذا التصوّر كيف استطاعت اللغة العربية أن تحقق اختراقات مجيدة في مجال التواصل الكوني. إن اللغة العربية ليست فقط لغة تحمي الهوية في زمن الكوكبة الجارفة، بل إنها بدأت تنخرط في هذا السباق. ويتوقع كثير من الخبراء أن تكون العربية إحدى لغات الكوكب التي ستقاوم الإمحاء. وكيف لا تكون العربية لغة انفتاح وهي التي يعتمدها الغرب والشرق ليعبر إلينا بثقافته. فكأنها تستعيد سحرَها القديم!.

6. اللّغة ورهانات التحرُّر والديموقراطية.

تصدح اليوم حناجر الشباب –الذين خبروا أحدث وسائل التواصل الاجتماعي على "الفيسبوك" و"التويتر"– بمطالب الحرية والكرامة وإسقاط الاستبداد. وللذين يتهمون العربية بالجمود والموت نقول: أليس عجيبا أن لا

يجد شباب الشابكة (الإنترنت) – عنوان الحداثة والتعدد والانفتاح– غيرَ كلمات قالها شاب – فتَّ السقم في كبده – في عشرينات القرن الماضي، فتصيرَ كلماتٍ تُسقط أصنامًا وتُزلزل عروشًا؟

لقد استعادت اللّغة العربية دورها في تجسيد مطلب التحرُّر عند الشعوب العربية من المحيط إلى الخليج. ورغم أن الشعارات المرفوعة في الساحات والميادين تتعدد، لكن الانطباع الذي يخرج به المراقب البعيد هو أن أكثر الكلمات والعبارات تأثيرًا عربية صميمة. وصارت عبارات مثل: اِرحل، يسقط الاستبداد، الشعب يريد، من أجل هذا هرمنا، إلخ. كالأيقونات التي تفعل فعل السحر. ومن يستطيع بعد اليوم أن يقول إن العربية ليست لغة الوجدان أو الهوية؟ وبعد أن كانت الشعوب العربية تابعة، إذا هي اليوم تقود إرادة التحرر وتكسير الأصنام.

إن معركة الشعوب اليوم هي أن تربح رهان التحرُّر والديموقراطية. وأحد مطالبها أن تكون لها حرية اختيار لغتها، وقد فعلت. أفبعد ذلك يأتي من يمارس عليها الحِجر اللغويّ ويفرض عليها خياراتٍ لا ترتضيها؟ إن الديموقراطية اللغوية مطلب حيوي. ومن مظاهرها البسيطة أن لا تفرض على الشعب لغة واحدة –وهي المهزومة المهددة في كيانها– لتكون عنوان الانفتاح. ولم يعد سائغا أن تفرض عليه سياسات لغوية غير ديموقراطية. إن الشعب يريد تعليمًا بلغته، وإعلامًا بلغته، ويريد بيئة لغوية سليمة لا تلوثها الكائنات اللغوية الغريبة.

7. إضاعة اللغة تسليم للذات[13]

منذ عقود طويلة، دخلت اللّغة العربية معركة الوجود والتجديد. لقد نفضت عنها غبار السنين، واستطاعت ربح جزء من رهانات التطوير. ولم يَنلْ

(13) هذه العبارة عنوان لمقالة شهيرة كتبها عبد الله النديم، في مجلة "التنكيت والتبكيت"، دفاعا عن العربية. وهي تدل بوضوح على وعي مبكر بالعمق الهُوِي للمسألة اللغوية، وأن الصراع مع المستعمر هو في عمقه صراع على الوجود والهوية والتاريخ والموقع الحضاري.

من وهجها سَعي الكائدين لها لإضعافها. فخلقوا لها أعداء وضَرَّات، وأثاروا من حولها نقع معارك خاسرة. ولم تخرج منها إلا بمزيد من الإصرار والعنفوان. ولم تعد فرية العقم-التي اشتكى منها حافظ إبراهيم- توجِع، بعد أن ثبتت قدراتها على التوليد والابتكار والخلق. لقد أثبتت اللغة العربية أنها لم تزل لغة الوجدان والفكر، ولغة العلم والإبداع الإنسانيّ. وأنها فوق ذلك كله لغة مُحررة جامعة موحِّدة، تصهر كل من ينطق بها في كيان حضاري كلي.

إن اقتحام اللّغة العربية مجالات التواصل الكوكبي السريع أثبت مقدرتها العظيمة على التطور وفاعليتها في التأثير. لكن معركة التأهيل والتجديد وتطوير الأدوات -حتى تتمكن لغةً للعلم والتعليم والحياة- ما تزال دائرة. وربحها رهن -بالتأكيد- بإرادة شعوبها والقادة والمفكرين والعلماء من أبنائها. وما أكثرهم!

لقد أظهر كل هذا التاريخ القريب أن معركة اللّغة هي معركة الأمّة كلّها. فاللّغة توجد في قلب رهانات التحرّر والديموقراطية والهوية، وبعبارة، معركة الوجود الحضاريّ كلية. هذا الوعي بالوشائج الوثيقة بين اللغة – بما هي رأسمال رمزي- والهوية ليس جديدا. بل إنه متأصل عند المفكرين من عصر الإصلاح والنهضة إلى اليوم. فقد أدركوا أن ربح معركة اللّغة مقدمة ضرورية لربح معركة التحرّر والتقدم والتحديث. ووعوا أن إضاعة اللّغة تسليم للذات.

المراجع

مراجع عربية :

1 – التازي، عبد الهادي. 2006، **بين الفصحى والعامية بالمغرب**، اللهجات العربية الفصحى والعامية. مجمع اللغة العربية، القاهرة.

2 – الحلوي، محمد، 1988، **معجم الفصيح في العامية المغربية**، شركة النشر والتوزيع المدارس.

3 – سعيد، نفوسة زكريا، 1966، **عبد الله النديم بين الفصحى والعامية**، الدار القومية.

4 – فاسي فهري، عبد القادر، 1998، **المقارنة والتخطيط في البحث اللساني العربي**، دار توبقال للنشر.

5 – فاسي فهري، عبد القادر، 2012، **التحرر اللساني**، جريدة المساء، ع 1742 وع 1743.

6 – كنون، عبد الله، 1975، **التعاشيب**، دار الكتاب اللبناني.

7 – وحيدي، محمد، 2011، **أساسيات الخطاب اللساني عند عبد القادر الفاسي الفهري**، اللسان العربي، مجلة اللسان العربي، ع 68، ص 158-165.

مراجع أجنبية

1 - Arlund Hass,T. and Ramminger,J. (2010) *Eds. Latin and the Vernaculars in Early Modern Europe, Renæssanceforum 6*, www.renæssanceforum.dk

2 - Fergusson, C.A. 1959a, Diaglossia, *Word*, vol.15, pp. 325-340.

3 - Fergusson, C.A.1959b, The Arabic Koine, republished in *Structuralist Studies in Arabic Linguistics: Charles Fergusson's Papers*, 1997 Brill-Leiden.

4 - Owens, J. 2001. Arabic Sociolinguistics. *Arabica*, tome: XLVIII, pp: 419-469.

5 - Owens, J. 2006. *A Linguistic History of the Arabic Language*. Oxford: Oxford University Press.

6 - Patten, A. 2005. The humanist roots of linguistic nationalism. Ms.

7 - Rammingger,J. 2010. humanists and the vernacular, in Arlund Hass,T. and Ramminger,J. 2010. (Eds.) pp: 1-22.

8 - Stadlbauer**,** S. (2010) language Ideologies in the Arabic Diglossia of Egypt, Colorado Research in Linguistics. June 2010. Vol. 22. Boulder: University of Colorado. p 1-19.

9 - Spolsky, B. 2004. *Language Policy*, Cambride University Press.

10 - Woolard,K.A and Schieffelin, B.B 1994 Language Ideology .*Annual Reviews in Anthropology* 23:55-82.